المدونة | المجلد 10/ العدد 02/ ديسمبر 2023. ص 343 - 357

جدلية الأنا والآخر، مقاربة لتجليات الآخر في الرواية العربية المغاربية

The dialectic of the self and the other,an approach to the manifestation of the other in the Arab-Maghreb novel

وحيد جلال سديرة *

تاريخ الإرسال: 2023/06/29	تاريخ القبول: 2023/10/03	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

كتبَ الرِّوائيُّون المَغاربةُ في الجزائر والمغرب، عن التَّفاعل الذي يحدثُ بين ثقافات الأمم منذ زمن الرَّحلات العلميَّة وقبلها كذلك، وأظهروا نتائج هذا التفاعل بين طرفي الحضارة الشَّرقيَّة في صورة الـ (أنا) والحضارة الغربيَّة في صورة الـ (الآخر)، وراحَ بعضُهم يُسقِطُ مكبوتاته على البطل، ويكشفُ الجانب المَادي الفَاسد في (الآخر)، وقد خلصتُ إلى عودة الـ (أنا) إلى الأصل مهمَا كانت الإغراءاتُ المَاديَّةُ...

الكلمات المفتاحية: الرواية- المغاربية- الأنا-الآخر- الشرق- الغرب- الحضارة- الماديَّة.

Abstract:

Moroccan novelists in Algeria and Morocco wrote about the interaction that takes place between the cultures of nations since the time of scientific journeys and before them as well, and they showed the results of this interaction between the two sides of the eastern civilization in the form of the "I" and the Western civilization in the form of the "other". It reveals the corrupt material side in the (other), and I have concluded that the (I) returns to the original, regardless of the material temptations.

***Key words**: The novel - the Maghreb - the self - the other - the East - the West - civilization - materialism*

---

* جامعة البليدة 2 wahid.jallal@yahoo.fr

s.wahid.jallal@ @univ-blida2.dz

*** *** ***

المؤلف المرسل: وحيد جلال سديرة s.wahid.jallal@ @univ-blida2.dz

مقدمة:

تأخذ لقد توجّهتِ الدِّراساتُ الأدبيَّةُ المقارنةُ إلى استثارة نصوص روائيَّة لاستخراج مكنوناتها التي تربط بينَ طرفين يختلفان في الجنس (المرأة/الرَّجل) وفي الأوطان (غرب/شرق) وفي التُّراث أو المَوروث الحضاري بينهمَا (المادي/الرُّوحي) كبشر يتفاعلون عن طريق التَّلاقي في الرَّحلات العلميَّة أو التَّنقيب عن الموروث الفكري في المَخطوطات وتحقيقها ومن خلال السِّياحة والتَّنقُّل بين الأقطار..وهكذا وجد "الأنا" نفسه أمام "الآخر" يخاطبه، يأخذ منه، ينبهر تارة به، ويرى الحريَّة والانطلاق معه وفي وطنه..

فهل الـ (أنَا) مستقلٌّ عن غيري (الآخر)؟" "أنا في حاجة إلى توسُّط الآخر لأكونَ ما أنا عليه..[1] .وقد سعت هذه "الأنا" في مُحَاولة ترك بصمتها على الآخر لتثبتَ وجودَها ورقيًّا ومن خلال مؤلَّفات تثيرُ إشكاليَة هذه العلاقة كمَا هو الشأن في عُصفور من الشرق لتوفيق الحكيم أو الحيِّ اللاتيني لسُهيل إدريس أو قنديل أم هاشم ليحي حقِّي، وغيرهم غير قليل، وهذا الإثباتُ كانَ في صورة طالب علم متشبث بأصوله العربيَّة، أو طالب منبهر بالحضارة الماديَّة الغربيَّة، في مقابل"الآخر"الغربيِّ في صورة مستوطن، أو مالك للحضَارة والعلوم، وفي الغالب كان"الآخرُ"امرأة" جميلة تشدُّ الأنظارَ وتفتُن العقولَ، وتسلبُ الألبابَ كـ(سوز) في "المرأة والوردة" لمحمد زفزاف، أو فرانسواز في "ما لا تذروه الرِّياح" لمحمد عرعار..وقد تصارعت الأفكارُ بينهمَا منذُ البدايات الأولى إلى اليوم، فكان لكلٍّ منهما بضاعته التي يدعو إليهَا ويسوِّقِها، ويراها الأفضلَ من غيرها، وحمَّلوا شخصياتهم تلك الأفكار.

لقد مثَّلتْ صورةُ الآخر (الغرب) قيمَةً معرفيَّةً واجتماعيَّةً بل وإيديولوجيَّة سوَّقتها أقلامُ (الأنا) (الشرق) أكثرَ ممَّا فعلَ (الآخر) لنفسه وفكره، وكان لازدهار فنِّ الرِّواية في

القرن العشرين بالغ الأثر في هذا التَّرويج والتَّسويق، ولم تكن صورة (الأنا) في الغرب (الآخر) إلا تلك القيَم التي تحمل كلَّ عناصر التَّخلف والعنف والكسل والشهوانيَّة، على خلاف الصُّورة التي انتشرت عن الآخر المتَحضِّر والعالم المتسَامح الذي ينشرُ قيمَ الفضيلة والجَمال في المجتمعَات..وكانت كلُّ تلك (القيم) بعيدة عن الواقع، ومتزيِّنة بخطابات ينحتونها شكلا من مبادئ الثَّورة عند الفرنسيين، ومبادئ الفلاسفة منذ الحضارة الإغريقية والحضارة الرُّومانية، وما خلَّفته كتاباتُ المنظِّرين الاجتماعيِّين، وحين تصطدمُ تلكَ الـ (القيمُ) بالحَقيقة يزولُ ما عليها من زيف، وتنكشفُ للـ (أنا) لتكونَ العودةُ إلى الواقعِ هي الملاذ كما هو عند بطلي عرعار أو زفزاف البشير أو محمد، وبذلك تشكَّلت صورةُ المهاجر وعلاقته بالمجتمع الآخر..

إنَّ مفهوم الصُّورة ليسَ حديثًا ولا دخيلا على الأدب العربي، فقد كانت صور المرأة والبَيئة من خيم وإبلٍ وخَيل، وصور الصِّفات كالكرم والبُخل والشَّجاعة والجُبن والإغاثة لا تخلو منها القصائد الجَاهليَّة، .."..قنع إيمانُنا تامٌّ بأنَّ النقادَ المحدثين قطعوا شوطا في تعريف الصُّورة وتحديد مدلولاتها ومعالجة قضاياها، فإنَنا لا يُمكنُ أنْ نغفلَ جهودَ القدَماء، لأنَّنا عندَها نكونُ كالطَّير الذي يرغبُ أنْ يطيرَ بجناح واحد، ولن يتحقَّقَ ذلك.."[2].

وكانَ حقلُ الصُّورولوجيَا غنيًّا بالدِّراسات التي خاضَت في مقارنات منتوجات الغرب (الآخر) والشرق (الأنا)، "..ولم يكنْ من السَّهل الوُصولُ إلى معنى الصُّورة وليس باليسير الهين ولا السّهل اللّين ومن قال ذلك فقد احتجبَتْ عنه أسرارُ اللّغة وجمالُها المكنون المستتَر وروحُها المتَوثّبةُ النَّاميَةُ وليس لها– كما عند المناطقة -حدودٌ جامحَة وقيودٌ مانعَة"[3]..فالصُّورةُ بما تحملُه من تراكيبَ تقدِّمُها اللُّغةُ في أبهى تفاصيلها، "..هي تشكيلٌ لغويٌّ يكوِّنُها خيالُ الفنَّان من معطيات متعدِّدة يقفُ العالم المحسُوس في مقدِّمتها، لأنَّ أغلبَ الصُّور من الحواس على جانب ما لا يمكنُ إغفاله من الصُّور النفسية والعقلية).."[4]

وقد سبحَ كلُّ الدَّارسين في بحر واحد هو بحرُ الرِّوايَة، فاستخْرجُوا المواقفَ والقيمَ منها. لأنَّ الرِّواية وحدَها . حين تعالجُ هذه الإشكاليَّة . تكونُ قادرةً على: " تقديم

اضطراب رؤيتِنا وقلقنا وإحبَاطنا، فيعكسُ تطوُّر نظرتنا لذواتنا، وإلى الآخَرين، مثلمَا يعكسُ أوهامَنا وأفكارَنا المُسْبَقة، التي كثيرًا ما نجدُ أنفسنَا أسرى لها، فهي تُشكِّل أسسَ تصرفاتنا وعلاقاتنا معَ الآخر.."[5]..

في هذا المَقال حَاولتُ الوقوفَ عند هذه الإشكاليَّة والإجابة عن أسئلة: الانطلاق/الراهن/التَّصادُم/التكامُل/كشف المستُور وغيرها، بين الأنا: الذَّات الشرقيَّة/الآخر: الذَّات الغربيَّة..والحديث عن صورة الآخر من خلال الرواية المغاربيَّة العربيَّة..

يرى جورج الطرابيشي أنَّ الرُّؤية العربيَّة، تعتبَر فن الآخر، حاولتْ أن تختصرها في ثنائيّة: الرجل الشرقي/المرأة الغربيَّة، يلفُها فضاءٌ معبَّقٌ بروحانيَة الشَّرق، وفضاء غربيّ ماديٍّ بحت غارق في الشَّهوانيَّة متجاوزا قيود الشرق ..

وقدْ تجسَّد هذا الخطابُ في بواكير الرواية العربيَّة التي جسَّدها توفيق الحكيم او يحي حقِّي وكذا الطيب صالح، ولم يغبْ عن كُتَّاب الرواية المغاربيين هذا الخطاب أيضًا، فكان للطاهر وطار ومحمد عرعار ومحمد زفزاف وموسى ولد ابنو منه نصيب، حتَّى أنَّهم حصروه في العلاقات الجنسيّة بين المراة الغربيَّة(الآخر) والرجل الشرقي (الأنا)، وكان هذا (أنا) بطلا بدون حروب يخوضها في الميدان ولكنَّها على أسِرَّة المتعة والممارسات الانتقاميَّة من الغرب في صورة الأنثى..موهمًا نفسه بأنَّه ينالُ من الغرب كلِّه الذي استعمرَ البلدان واستعبدَ الإنسان..

وهذا المَوضُوع حسَّاسٌ جدًّا لما له من تأثيرات سوسيوسياسيَّة، فهوَ شديد الارتباط بالحياة اليَوميَّة التي نعيشُهَا، وما يترتَّبُ عن امتداده في المستقبل بين هذه الثنائيَّة من حيثُ التعايشُ والتَّنافرُ، كما ورد على سبيل المثال في أعمال "شرق وغرب رجولة وأنوثة" لجورج طرابيشي و"وعي الذات والعالم" لنبيل سليمان و"الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة "لمنصور قيسومة "الذات والمهماز"لمحمد نجيب التلاوي".. على اعتبَار أنَّ الرِّواية لهَا القدرَة على تصوير الشَّخصيات[6].

الشخصية: بين الأنا والآخر

إنَّ الشَّخصيَّة في الرِّواية لها تطوُّرها النفسيُّ وتطوُّرُها الماديِّ، وهي في ذلك تتبعُ الأحداثَ تؤثِّر فيها وتتأثَّر بها، وقد عُرفَ الرِّوائيون بشخصياتهم القويَّة التي صوَّروها في المجتمع، بل كانت بعضها أقوى من الحكَّام والسَّلاطين أنفسهم، فالعالم كلُّه يذكر(أنَّا كارينينا) لتولوستوي أكثرَ من ذكر القيْصر الذي عاصرها، وقد "..غدَت الشَّخصيةُ ذات هويَّة وخصائصَ وإيحاءات مختلفة، ولا أدلَّ على هذه الأهميَّة من أنَّ الشخصية، قد جاءت، في بعض الأعمال، مدار القصة ومادتها..[7]..يرى الدكتور عبد المالك مرتاض بأنَّ الشَّخصية: "..تُسخَّر لإنجَاز الحدث الذي أوكلَ الكاتبُ إليها إنجازه، وهي تخضع في ذلك لصرامة الكاتب، وتقنيات إجراءاته وتصورَاته وايديولوجيته، أي فلسفته في الحياة"[8] ..كما يمكنُ لهذه الشَّخصية أن تتمرَّد على الكاتب فتثيرُ أفكارا وترفضُ أخرى كما فعلت شخصيات الطاهر وطار في الطعنات، وهذا باعترافه لأنَّها تملكُ قدرة الكشف عن أيِّ مشكلة سرديَّة أكثرَ من غيرها..

مبرراتُ الرِّحلة إلى الآخر:

لماذا يتحوَّل (الأنا) من هنا إلى (الآخر) هناك؟..وما مبرِّراته؟..قد يتَّفقُ الجميعُ في اعتبار التنقل مغامرة مهما كانت أسباب الرحلة، والمغامرة هي اعتقاد (الأنا) أنَّ هناك توجدُ جنَّة تخلِّصُه من التَّخلف والجَهل والسُّلطة الأسريَّة، وطابوهات الدِّين والمسكوت عنه..وكأنَّه يحاولُ إثبات هويَّته أيضًا بإيجاد المقابل (الأنا/الآخر) (الهنا/الهنَاك) (الشَّرق/الغرب) وينتصرُ لعناصر الآخرمن حيثُ لا يُقرُّ بذلك.

ثنائيّة (الأنا /الآخر) في رواية "المرأة والوردة" لمحمد زفزاف:

إنَّ العلاقةَ معَ الغرب(الآخر) لها جذُورهَا في التَّاريخ الطَّويل، وفي الرِّواية العربيَّة، كما ذكرنا عند الرُّواد، غيرَ أنَّها تميَّزت بالجديد في بلاد المغرب العربي، نتيجة التصادم بين الشرق والغرب، والاستعمار المباشر..ولوجود الثقافة الغربيَّة ـ والفرنسية بالدرجة الأولى ـ في كلِّ مناحي الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، ومازال هذا الحلم في الذهاب الى الآخر مسيطرا على العامة والنُّخبة على السَّواء، تُجسِّدُه الرِّواية ورقيًّا وطلبات التَّأشيرة بالآلاف يوميًّا. فما موقفُ المثقَّف المغاربي بالدَّرجة الأولى من هذا

التَّهافت؟: "هل هي المغامرة المتهورة أو التجربة الواعية؟"[9] ففي "المرأة والوردة" نجدُ أنَّ المعاناة، هي المكان/أوربا، ميدان المغامرة للبطل، لقد انبهرَ بما رأى، افتتن بالجمال، وأعجبَ بالحضارة، وانغمس في الملذَّات يطلبها، لقد تحوَّل مكان (الآخر/اوربا) بالنسبة له ـ في لحظة إغراء ـ تلك الجنَّة المبحوث عنها..محاولا تغيير المعاناة التي عاشها، إنَّ صديقَه العربيّ يدعوه إلى المزيد من التعرف على المدينة/الجنَّة، وهذا التَّعرُّف والانغماس لا يكون إلا بخوض المغامرة.: "إذا كنت تحبُّ المغامرة، فهي ميدان خصيب لها"[10] يقصد أوربا كلَّها..ويتحوَّل المكان عنده في رأي صديقه إلى متناقضات بين الـ (هنا)شرق/والـ (هناك) غرب، وحين يغريه بالمغامرة يقول له: "إنَّك هنا لا تستطيع أن تسرق حتى دجاجة، أما هناك، فإنك تستطيع بسهولة الحصول على ورقة خبير في السوق الأوروبية المشتركة، وبذلك تستطيع أن تتجوَّل في أوروبا كلها[11]".." هناك تستطيع أن تصيرَ ما شئت، وهناك لك أن تشاء، أولا تشاء[12]"..ويقول أيضا: " إنَّنا محظوظون في أوروبا، أكثر ممَّا نحن عليه هنا في الدَّار البيضاء، هنا تسيِّرُنا أقليَة من المغامرين والقوَّادين وبائعي نسائهم.."[13]..

إنَّ صديقَه يثير فيه الرغبة، وهي في الأصل موجودة لوجود أسبابٍ كثيرة، تدعو للانتقال من هنا إلى هناك.. لقد كان هذا اللقاء الذي تم بين محمد وصديقه المغترب في رواية "المرأة والوردة" قد نتجَ عنه تحريك المشاعر الكامنة لمحمَّد، والمتوثِّبة لاستقبال أيِّ شيء يُخرجها من دوائر القهر والظلم والتخلُّف وأوامر عليا تنْهى العامة عمَّا تقوم هي به..هي ظروفٌ لا تقبَلُ أن تزول إلا بالانتقال إلى هناك، ويؤمنُ محمد بهذا إيمانا قطعيًّا.. وتمَّ الإحساسُ باللاجدوى من البقاء هنا، ووقعَ كلام صديقه في نفسه موقعَ المتوثِّب للطيران وراء البحر اليوم قبل الغد: " فلا مكان لك أولي، هنا في هذه المدينة الكبيرة، إلا إذا كنت ذا بشرة بيضاء وتتكلم الفرنسيَّة بطلاقة الباريسيِّين.."[14] وهذه إشارة قطعيَّة أنَّ وطنه لا يقبلُ إلا من كانت بشرته بيضاء يتكلَّم لغة الآخر بطلاقة الباريسيِّين..

وحين نحاول النَّظر إلى هذه الشَّخصية نجد أنها تنتمي إلى رؤية الواقع ومسايرته ومحاولة الانغماس فيه، فالبطل يحاول من خلال ملفوظات الحوار كشف معاناة المجتمع، وقهر السياسيين له، ولبُنيَة الأنا المغربيَّة، وهو ما دفعها للاغتراب والعيش مع

(الهناك/الآخر/الغرب)، كمكان بديل عن (الهنا/الأنا/الشرق) فالسَّفر حين أُتيحَ له أصبح: "بحثا عن حياة زمنيَّة مفقودة بإمكانها تعطيل التاريخ الآني، المشحون بالصراعات والتناقضات، و الاستسلام للحلم الذي زرع بذوره صديقه المغترب، وبالتالي، تتحرَّر الأنا من قفَصها الذي انحشرتْ فيه "[15] وعليه فإنَّ المنشودات الثلاث التي يبحثُ عنها البطل محمد هي:

1/ الثَّروة. 2/إمكانية الصَّيرورة إلى ملك وإمبراطور3/ الغرب حياة وفردوس

إنَّ الرِّوائي يدفعُ بشخصيَّة البطل إلى المغامرة العنيفة حين يرحل إلى إسبانيا ويلتقي بمجموعة من الإسبان منهم (جورج/ألان/سوز/بربارا) ويغيِّرُ المكان (الدار البيضاء)المغربي بمكان جديد هو(طوبولينوس) الاسباني، إنَّه وبجنون يبحثُ عن قيم عربية في غير مكانها، وسرعان ما ينبهرُ بما يرى ويعيش من تطوُّر وحضارة، تتسارع في السَّرد وتتوقَّف في الحوار ليُعرِّفنا محمد عن حقيقة ما يفكِّر فيه، وما يعيشه الآن، بدل ما كان يعيشُه سابقا..غير أنَّه يكتشفُ مع تطوُر الأحداث زيفَ الحَضارة الغربيَّة، إنَّ مغامَرة محمد البَطل استغرقت الفُصولَ السِّتة من الرِّواية على خلاف مغامَرة (جو) في الفَصل الأوَّل الذي كان لإشعَال نار المغامرة..فكان هو الفعل وبقية الفصول ردّةُ الفعل، ويَمتدُّ الزَّمنُ بين تجربَة ومغامرة، لم يعدْ محمد في الأخير ذلك المنبهرُ الذي ينسى جذوره وأصوله، وهُويَّته، على الرُّغم من ارتباطها بالماضي التَّعيس المشحون بالجوع والفقر والمعاناة والحرمان، حيث أظهر (الأنا) اعتزازه بالذات في مقابل (الآخر) وجملة الإغراءات..وأكثرُ ما يتجلَّى هذا الاعتزاز بالذَّات في الـ (هناك) أكثر من الـ .(هنا)، لأنَّ (الآخر) يأخذ مسافة من (الأنا) في كل الحالات: "جورج لا تغامر مع هذا العربي.."[16].

لقد كانت ردة الفعل عنيفة: "لم أشعر فضربته على وجهه بلكمة ألقتْه وسط الحرج، ورأيته ملقى وسَط الحشيش، وهو يضع كفه على وجهه.. [17] .. ويتطوَّر مثل هذا الفعل إلى الانتقام من المجتمع ككل في صورة الفتاة (سوز) حيثُ يجعلُ منها مركزا للجنس، كما يرى مصطفى فاسي[18] ويتحوَّل عنفه إلى هدوء يدفعه إلى الارتباط بهذه الفتاة التي تحبُّه وتريد إنقاذَه من وحْل (الآخر) وحضَارته المزيَّفة بمسَاحيقِ الخداع والكذب.

إنَّ شخصية البطل (محمد) تحيلُنا على شخصيَّة السَّارد ذاته (محمد) زفزاف ذات المرجعيَّات المتنوّعة دينيًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا وثقافيًّا، وهي إشارات تحيل بدلالاتها العميقة على ذات المنشإ، وعلى ما بينهما من تقاطعات فالرِّوائيُّ لم تظهرْ عليه الملاينة والمهادنة للغرب، ولكنَّه دفع بطله إلى الاعتراف بحبِّه له وخوفه عليه في ذات الوقت، ونرى ذلك في لحظة قراره العودة إلى وطنه عندما اشترى بطاقة بريديَّة كتب عليها: "سوز أحبُّك، وأحبُّ الدانمرك، انتظر دائما أن تنقذيني، أحبك، أحبك أحبُّ..." لم يجعل الحبَّ لها وحدها بل ربطه بالمكان (الدنمارك)، ولم ينكرْ أنَّها تحاول باستمرار إنقاذه بل جعل هذا مستمرًّا معها..وهو في حاجتها دائما، إنَّه يحتاجُ (الآخر) لينقذه من (الآخر)..

الأنا والآخر في رواية "مالا تذروه الرِّياح":

إنَّ مبرَرِّرات الهجرة إلى فرنسا عند البشير غير التي كانت عند (محمد)، فليست المرأة، بل السَّفر وقطع الأمصَار واكتشاف الأقطار، لأنَّ (الآخر) فعلَ ذلك واستطاعَ أنْ يكتشفَ ويَستعمرَ ويَعيشَ بعيدًا عن (المكان) الذي عايَشه ووُلِدَ فيه، فكيفَ يعجزُ هو ولو كان متزوِّجًا حديثًا؟ فكأنَّهُ يُريدُ أنْ يُبرهِنَ لهَذا (الآخر) أنْ يقولَ لهمْ ها هو الـ (أنا) يَفعلُ ما تفعلونَ: "..ويدرك سر سفرهم، أيستطيع الفرنسيون مغادرة بلادهم، فيقطعون البحر ويحتلون الأقطار، ولا يستطيع هو أن يغادر قريته فقط ؟ إذن فليكشف السر الذي سمح للأوربيين بالانتصار والغلبة، ليتمسك به، ثم بالإضافة إلى ذلك فليبرهن لهؤلاء الناس المتعالين، الأسياد، أنه يستطيع أن يماثلهم، ويصبحَ ندًّا لهم" (19). ولم يسمعْ كلامَ الكثير من الناس الذين ذهبوا إلى فرنسا، وكانوا "معتبرين في مرتبة السَّفلة والسُّوقة، وفي بعض الأحيان في مرتبة العبيد المقهورين"(20) ولا يهتمُّ بموقف (الآخر) الرَّافض لقدوم (الأنا)" كيف سمح لكم أنتم أيُّها الغرباء، أن تَقْدُموا إلى عاصمة العالم، وتطمعوا في كرمها؟"(21) وحين نُقيمُ مواقفَ البطلين (الأنا/الشرق) في مقابل (الآخر/الغرب) يمكن حصر ذلك في نقاط نُجملها في ما يلي:

*- عدم القدرة على تمييز موقف واحد بين الغرب والمغرب العربي..

*- الانبهار بالغرب لم يمنعْ من الوعي بالواقع العربي..

*- تحوُّل المغامرة إلى التجربة عند البطلين.

*- إبراز سلبيات المجتمع المغاربي-المغربي والجزائري خاصة- المتمثلة في الطبقية والحرمان...

*- تعلق البطلين بالغرب من خلال (سوز) و (فرانسوز)، وهما يتأهبان للعودة إلى بلديْهما.

المرأة الجذَّابة: أو الشَّخصية المبحوث عنها

ما كان للرَّجل المغاربي أن يحتكَّ بالمرأة الغربيَّة لولا تلك الظروف التي يعيشها، وتلك الأسبابُ التي تجمَّعت ودفعته إلى الرّحيل ليتعرَّف على شخصية المرأة الفرنسية أو الإسبانيَّة أو الدانماركيّة..وينجذب إليها، كان جمالها من جهة وحرمانه الجنسي من جهة أخرى. هو ذاك الدّافعُ، فالعاشقة في ذهن (الأنا) المغاربي، دائمة الجمال ولا تهتم بالخرافات، كثيرة الاستطلاع، تستهوي القلوب لمعاملتها الحسنة مع الآخرين. تتَّمتَّع بحريَّة التصرف، وتتجوَّل في مختلف الأمكنة وتتحدَّث مع الرجال دون قيود أو شروط "كلُّ ذلك والمغربي الشاب ينظر إليها فاغرا فاه"كما يقول زفزاف.. ولينسجَ السَّارد تلك العلاقات في شبكة من التقاطعات المتتاليَة حينَ ينفردُ بقلمه، ويسيح بخياله، ويستدعي ما تراكم في ذاكرته، يكون الارتباط بشخصيته ارتباطا واعيًّا جدًّا بتداخلات التَّأثُّر والتَّأثير، والمتحكِّمة في التَّجاذب في بنيَتها..

ويعتبرُ شكل المرأة (جمالُها) بؤرة شديدة التوتُّر لشخصيَّة (الأنا/السَّارد) الذي يستدعيها من خياله فيرسمها في (صورة) لا يستطيعُ البطل مقاومَتها، وخاصَّة حينَ يمكِّنه منها عاطفيًّا ثم جنسِيًّا..وتكونُ بالمقابل مُعلِنَة عن الكثير من طبائعها وصفاتٍ تستهوي بها الرَّجلَ، وتبحثُ عنها فيه فتجدُ ما يشدُّها إليْه. ولكنَّ هذه الصُّورة التي ترتسم، ليستْ هي الواقع إنَّها "ليستْ شديدة التقرُّب منه ولكنَّها ليست مختلفة عنه تمامَ الاختلاف" [22]، لقد وجدَ بعضًا من هويَّته في الغربة، وبمجاورة (الآخر) الذي خلَّصه من ترسُّبات الماضي المتخلِّف في صورة ممنوعات تُحرِّم عليه التَّنفُّس إلا بمقدار كما يريدُ أن يصوره لنا محمد عرعار في بطله البشير، المتمرِّد على كلِّ شيء، ثمَّ الرَّافض لهذا الـ (كلِّ شيء) فهو في البداية يسخرُ من المجاهدين، إنَّه يرفضُ ما يقوم به أبناءُ

وطنه في محاربتهم للاستعمار" : يا لهم من بؤساء، لو كنتُ مكانهم لرجعتُ إلى بيتي وإلى أهلي وتركتُ الذي لا استطيعُ عليه"[23] إنَّه سقوط أخلاقي وتنكُّر للأمَّة ، ثمَّ تبعيَّة للآخر تصل حدَّ الانبهار، والذَّوبان فيه .. ويزداد هذا الانبهارُ حين يحاورُ نفسَه، و كأنَّه يريدُ الانضمام إلى الجيش الفرنسي: "إنَّه لشرفٌ عظيمٌ أنْ يكونَ الإنسانُ في جانبهم.."[24] مبديًّا هذا الانبهارَ بالرَّجل الفرنسيِّ والحضارة الفرنسيَّة، ثمَّ وهو في فرنسا يرى فرانسواز يُعجَبُ بشجاعتها وهي تمشي ليْلا وحدَها، وحين يرى جمالها يقرِّر: "هذه هي المرأةُ التي كنت أبحثُ عنها منذ زمن بعيد، هذه هي المرأةُ التي تلزم عليَّ أن أتقرَّبَ منها وأنالَ رضاها، هذه هي الأنثى التي تجدرُ بي فلْأتبعها وأحاولَ التَّقرُّب منها لا أتركها إلى أن أعرفَ كلَّ شيءٍ عنها"[25]. ولا يهمٌّ ما يحدثُ له، إنَّها حالة اكتشاف الأخر..وركضَ وراءها وحين سقط ساعدَتْه على الوقوف وأخذته إلى دارها، ونشأت بينهمَا علاقة، ولكنَّها سرعان ما تنتهي لأنَّها (الآخر) تريدُ منه تلبيَة رغباتها الجنسيَّة، وهو (الأنا) لا يريدُ إلا أن يكتشفَ الوجه الآخر لهذه المرأة المتحرّرة من كلِّ القيود، فتصبِحُ آلة لتلبيَة رغباته ومكبوتاته الجنسيَّة، وبلغَ انخراطه الكلِّي في ذات (الآخر) أن تنكّر لزوجته ربيعَة، ليقيمَ دليله على الانحراف المعياري باتجاه تفرنسه وتغرُّبه، فقد اختار زوجته مثالا لينكر علاقته بها وله أسبابه وليقطعَ صلاته حيث تقفُ المرأةُ الرمزُ الحيُّ والمعادل الموضوعي للأرض والوطن"[26] لقد استبدل فرانسواز بربيعة، وتنكّر لابنه (باديس) الذي يحمل اسمه دلالة قويَّة جدًّا في تاريخ الجزائر الحديث، ورمزا على الهويَّة والثَّقافة، لقد انبطح البطل حتى لم يعدْ يؤمنُ بالوطن منفصلا عن فرنسا التي يراها في قمم المجد: "..يكاد رأسُها يلامس السَّماء من شدَّة الكبرياء والاعتزاز بالنَّفس.."[27] ولم يرَ فائدة من أن يُسمى ابنه باديس أو يكون عالما كابن باديس..: " فما معنى باديس وما معنى أن يكون عالمًا كابن باديس؟ عالمنا؟ لماذا لا يكون اسمه الأول بيير أو كلود أو بول إنَّ لهذه الألفاظ مرونة وحلاوة وسحرًا خاصًّا يَشغف القلب ويُشنِّف الأذان، وكلُّ هذه الأسماء أسمَاءُ علماء.."[28] .. ولكنَّ هذا الانغماسُ الكليُّ في (الآخر) لا يلبث أن يتوقَّف وينتهي ليعودَ البطلُ (الأنا) إلى واقعه، ويعرفَ المسافةَ التي يجب أن يُقرَّ بها بينه وبين (الأخر)..ولأنَّ علاقتَه بفرانسواز لم تُبنَ على الحبِّ ستنتهي بسرعة .. ويَحدُثُ الانفصالُ الذي لابدَّ

منه..ويرى أنَّ انفصال البشير الجزائري عن فرانسواز الفرنسيَّة هو انفصال الجزائر المجاهدة عن فرنسا الاستعماريَّة...

وكأنَّ النهايات التي اختلفت تمامًا عن البدايَات في هذه الرِّواية هي حديثُ الرِّوائي العلني عن عودة الإنسان إلى الأصْل مهمَا امتدَّ به البعدُ عن الوطن، وزاد الانبهارُ بثقافة (الآخر)، واستغرقته شهوات الغرب الماديَّة فقد كان الاقتناع بأنَّ كلَّ المظاهر هي زيفٌ مركَّب لا يراه البصيرُ من خارج الحقيقة، ولكنَّها الحقيقة التي يجبُ أن يعرفَها من الدَّاخل بعد المعاينة والمعاشرَة والمسايرة. فرانسواز (الآخر/الغرب) لم تكن إلا تلك الشَّهوة العابرة واللذة التي تعلنُ فساد المجتمع، والبعد الكلّيِ عن حقيقة الرِّسالة الإنسانيَّة التي يحملها المخلوقُ داخلَ مجتمع بشريٍّ لا بهيمي حيواني يعيش حياته بين لذَّتي البطن والفرج...إنَّ شخصية البشير (الأنا) في نهاية الرِّواية ليست هي شخصيةُ البشير في بدايتها ووسطها..إنَّه تلك الشَّخصيَّة التي يجبُ أنْ تعود إلى: "إرثها التَّاريخي ومخزونها الفكري والحضاري بعد أنْ وضع يده على الوجه المظلم لبلد الحضارة والتقدُّم.."[29]..وحين تنتصرُ الثَّورة المسلَّحة وتسترجعُ حريَّة الإنسان والأرض، يقفُ البشير بتلك الشخصية الحائرة بين موقفين: أحدهما كان، والآخر صار..والبحثُ الآن عن أخرى تكون.. يقول: "..ماذا أفعل الآن ؟ ماذا أفعل؟ سأصبحُ أضحوكة في أعين الناس جميعًا، فبعد أن كنتُ محترمًا سأكون محتقرا ذليلا، يا لَحظي السَّيئ. أأستطيعُ أنا الآنَ أنْ أعيشَ كما كنتُ أودُّ؟ لا لقد ذهبَ كلُّ شيء. إنَّ جميعَ ما كنتُ أحسبُه صحيحًا كانَ خاطئا، كيف أفعل؟.."[30]..لقد حمَل هذا القولُ الكثيرَ من الحزن والأسف على ترك وطنه(الشرق) والرَّحيل إلى وطن (الغرب)، ويكونُ الجوابُ عن هذه التساؤلات هو قرارُ العودة إلى الوطن، تاركا وراءَه الزَّيف والكذبَ والارتمَاء في أحضان بلده التي يراها: "حسنَاء العالم وعروسَة المدن.[31].

هكذا عاد الماء إلى مجراه، وعاد البشير عند عرعار مثلما عاد محمد عند زفزاف إلى النبع والأصل، وانتهت علاقة (الأنا) بـ (الآخر) بالفشل الذَّريع..

الخاتمة:

إنَّ نظرة الشَّخصية (الأنا) في الرِّواية العربيَّة إلى (الآخر) اختلفت بين الإعجاب به وبين اتخاذها مسافة بينهمَا تتوقَّف على درجَة التَّجاوب، ليكون الحكم بعد ذلك ناتجًا عن قناعة..فكمَا دفعت الحاجَة محمد إلى الرحيل إلى اسبانيا ومعاشرته سوز الدانماركية، والتقائه بالأسبان والفرنسيين، ولم يستطع الاندماج معهم، لاتخاذهم موقفا سلبيًّا من كلِّ ما هو عربيٌّ..فقد دفع حبُّ الاكتشاف البشيرَ إلى الاعتقاد أن فكرةَ السَّفر إلى بلاد الآخر هي التحدِّي الذي يجبُ أن يقوم به كما قاموا هم أيضا بذلك حين تركوا أوطانهم واحتلوا أوطاننا...وكانت علاقته بفرانسواز (الآخر) هي ذلك التعبير عن قدرته على (احتلالهم) وانتهاك حرماتهم..ثمَّ الانفصال عنها بإرادته..

وما يلاحظُ من الرِّوايتين أنَّ (الأنا) لم يستطع أنْ يربط العلاقة بينَه وبين (الأخر) ارتباطا دائمًا، لأنها مبنيَّة على منفعَة لا تتعدَّى اللذة العَابرة، تزول بزوال اللحظة..ويرجعُ سببُ هذه العلاقة السِّلبيَّة إلى التباين بينَ حضارتين شرقيَّة وغربيَّة تعتمدُ كلٌّ منهَا على ما لا تعتمد عليه الأخرى، فالحضارة الشَّرقيةُ روحيَّة، والحضارةُ الغربيَّة ماديَّة..ولكلٍّ منها حالته التي أثَّر فيها (الآخر) فالروحيَّة تملك التخلف الذي أطَّره الاستعمار، والغربيَّة مادية التي بنتها سواعد الشرقيين ..ولا التقاء بين شرق وغرب، ولا بين تخلف وتقدُّم..

لقد صوَّرت الرِّوايةُ العربيَّة هذا (الآخر) في صورة المتشبِّع بكلِّ العناصر الماديَّة والمتفسِّخ أخلاقيًّا وروحيًّا، يعيشُ البهيميَّة في أجلِّ صورها، وأعمق مراحلها، ولا يجدُ حرجا في التَّباهي والافتخار بذلك..وكأنَّ الروائيَّ يحاربُ هذه الصُّورة محاربَّةَ من يريدُ إزالتها بالكامل، وتخليص الإنسان منها وإرجاعه إلى حالته التي يجبُ أن يكونَ عليها..وهذا الكشفُ بالصُّورة الرِّوائية الفنيِّة هو السِّلاح الفتَّاك الذي يقضي على انبهار الشرقي (الأنا) بزيف (الآخر)..

وما توصلتُ إليْه أنَّ (الأنا/الذَّكر) كانت بدون هُويَّة مُقنعة لكيانها ووجودها الإيجابي في مجتمع يهمِّشُها ويحتقرها، ولم تكتشف هذه الهُويَّة إلا بفضل (الآخر/الأنثى)، لقد كان الوطن/المكان يحتاجُ إلى شوق عارم يفرضُه الاغتراب، وكانَ التَّشبُّع بالحَاجة المفقودة هناكَ هو السَّببُ في العودة إلى (هنا) بعد أن أدرك أنَّ البحث عن الفردوس

هناك هي أكذوبة كبرى، و الحقيقة أنَّ الفردوسَ موجودٌ في داخله وبينَ أهله، في صُورة القيَم والأخلاق والعزَّة..وأنَّ الحلَّ لا يأتي من خارج (الهنا)، وهذا بالعودة إلى الوطن.

وتوصَّلت أنَّ التواصل بين طرفي الضفتين لا يتعلَّقُ بالمثاقفة، بل بفرض ثقافة واحدة فقط، كلُّها ماديَّةٌ تلبسُ زيف الإغراء، ترى تفوُّقها وسيطرتها على (الآخر)، وتنتهي هذه الحَالة المفروضة إلى حالة مقابلة مرفوضَة...

المصدران:

- المرأة والوردة: محمد زفزاف. الدار المتحدة للنشر بيروت.1972.
- مالا تذروه الرياح: محمد عرعار العالي، ش.و.ن. والتوزيع. الجزائر 1982.

المراجع:

1/ إبراهيم أمين الزرموني: الصورة الفنية في شعر على الحازم، دار قباء للطباعة، ط1، القاهرة، 2000.

2/ حسن عليان، العرب والغرب في الرواية العربيَّة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن. ط.1/1425هـ/2004م.

3/ عبد القادر ساردي، حدود القراءة في الخطاب السردي لرواية المرأة والوردة، مقاربة بنيوية، جامعة وهران، الجزائر، 2006/2005.

4/ عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1998.

5/ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).

6/ علي البطل: الصورة في الشعر العربي في أواخر القرن الثاني الهجري، الدراسة في أصولها وتصوراتها دار الأندلس، ط3 ، بيروت، (د.ت)، ص3.

7/علي علي صبح: الصورة الأدبية، تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، (د .ط)، القاهرة، (د .ت).

8/قسومة صادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، (د.ط) تونس، (د ت).

9/ ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر نماذج روائية عربيَّة)، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 2013 .

10/محمد عابد الجابري، الإسلام والغرب، الأنا والآخر، ..ومسألة الغيرية، مجلة الجابري، العدد02 ، 2015م.

11/مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999.

12/مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائريَة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999.

*** *** ***

الهوامش:

[1]- ينظر: محمد عابد الجابري، الإسلام والغرب، الأنا والآخر، ..ومسألة الغيرية، مجلة الجابري، العد 02، 2015م، ص22 .

[2] - إبراهيم أمين الزرموني، الصورة الفنية في شعر على الحازم، دار قباء للطباعة، ط1 ، القاهرة، 2000، ص98.

[3]- علي علي صبح: الصورة الأدبية، تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، (د .ط)، القاهرة، (د .ت)، ص05 .

[4]- علي البطل، الصورة في الشعر العربي في أواخر القرن الثاني الهجري، الدراسة في أصولها وتصوراتها دار الأندلس، ط3 ، بيروت، (د .ت)، ص3 .

[5]- ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 2013 ، ص14.

[6]- قسومة صادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، د ت ص96.

[7]- المرجع نفسه، ص97.

[8]- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر1998، ص86.

[9]- د. مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999، ص86.

[10] - رواية " المرأة والوردة"، ص 35.

[11]- رواية " المرأة والوردة"، ص20.

[12]- رواية " المرأة والوردة"، ص 11.

[13]- رواية " المرأة والوردة"، ص15.

[14]- رواية " المرأة والوردة"، ص 19.

[15]- عبد القادر ساردي، حدود القراءة في الخطاب السردي لرواية المرأة و الوردة، مقاربة بنيوية، رسالة ماجستير تحت إشراف د.عبد الملك مرتاض، جامعة وهران، الجزائر، 2006/2005، ص72 .

[16]- رواية المرأة والوردة، ص 11.

[17]- رواية المرأة والوردة، ص 26.

[18]- ينظر مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائريَة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999.ص 92وما بعدها.

[19]- رواية ما لا تذروه الرياح، ص49.

[20]- المصدر نفسه، ص50.

[21]- المصدر نفسه، ص49.

[22] - عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص82.

[23]- محمد عرعار العالي، ما لا تذروه الرياح، ش.و.ن. والتوزيع. الجزائر، 1982. ص15.

[24] - م.س. ص15.

[25] - م.س.ص 100.

[26]- حسن عليان، العرب والغرب في الرواية العربيَّة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن. ط.1425/1هـ/2004م/ص43.

[27] - محمد عرعار: مالا تذروه الرياح.م.س، ص 82.

[28] - م.س، ص 66.

[29] - حسن عليان: العرب والغرب في الرواية العربية. م.س، ص47.

[30] - م.س،ص 184.

[31] - م.س، ص 215